دوافع المستشرقين من ترجمة معاني القرآن الكريم.

الباحث الأستاذ عبد الحليم محمد

مقدمة:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه، ونعوذبالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هاديله وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحابته أجمعين، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

عمل المستشرقون جاهدين من خلال ترجماتهم للقرآن الكريم على تنصير العالم الإسلامي، ونشر الثقافة النصرانية في المجتمعات الإسلامية. وقد كان التنصير ولا يزال أحد الأهداف الأساسية للإستشراق من خلال الخوض في عملية ترجمة القرآن الكريم.

إن المتطلع على أعمال المستشرقين يعي بكل سهولة الدوافع والأهداف المنشودة لديهم، وكذلك بالرجوع إلى الفترات التاريخية وإلى واقع الدول الغربية قبل أن يبزغ نجم الاستشراق وبعد ظهور هذه الظاهرة الاستعمارية الجديدة، إلى جانب النظر إلى الصلة والعلاقة الحميمة بين الاستشراق والتبشير والاستعمار.

تنوعت دوافع الاستشراق في اتخادهم من الدراسة الإسلامية وبالخصوص الترجمات القرآنية مع العلم أن الدوافع تلتقي مع الأهداف،

باعتبار أن الدافع يمثل المحرض النفسي لاتخاذ الوسائل التي توصل إلى الأهداف الغالبة من العمل[1].

يقول تعالى:﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾﴾[المائدة:13].

النية المبيتة للمستشرقين:

اتخذ المستشرقون الترجمات سلاحا فتاكا لهدم الإسلام[2]ووسيلة من وسائل التنصير لتزيل معتقدات النصارى على بعض ما قد يكون متشابها من آي القرآن الكريم تلبيسا وتضليلا.

ولما كان سبيل الترجمات الاستشراقية لمعاني القرآن الكريم الذي سلكه المستشرقون هو تضليل المسلمين وتحريف وتبديل الحق حتى يُصرف الناس عن كتاب الله، أقدم هؤلاء على دراسة القرآن وعلومه منذ أن وضع القساوسة والرهبان أول ترجمة إستشراقية بالتعاون مع بعض الأيادي اليهودية الخفية.

نندهش أحيالنا عندما نرى صنيع المستشرقين في تراث المسلمين، وإقبالهم الشديد إلى ترجمة معاني القرآن الكريم، وخاصة إذا لاحظنا طرقهم في الترجمة وكيفية نقل النص الأصلي إلى لغتهم، سواء باللاتينية أوالعبرية كما هوالحال بالنسبة للترجمات الإستشراقية اليهودية[3]ونتساءل عن أصل تلك الطبيعة التي توجه ذلك الباحث الغربي(المستشرق) الذي يجهد نفسه في

دراسة عالم غريب عنه، يقطع المسافات البعيدة ويكابد من أجل تعلم لغة هوعنها غني. وربما ترك وطنه وجاهه وماله وأهله في سبيل نيل مخطوطة أوالحصول على نسخة من نسخ القرآن الكريم، أوترجمة أتلفها الزمان، أوالحصول على نسخة من كتاب الذين يحملون عقيدة ودينا مختلفا تماما عن دين ذلك المستشرق، لما كل هذا؟ وفي سبيل ماذا؟وإلى ماذا يهدف؟

يقول نجيب العقيقي: "فلوأن أحدهم أي–المستشرقين–انصرف طوال حياته إلى حل الكلمات المتعارضة، أوجمع طوابع البريد النادرة، أوكتابة القصص البوليسية، بدل التحقيق والترجمة والتصنيف، لخرجت به من تلك الجزائر المتعددة التي يعيش فيها المستشرقون إلى العالم الرحب في القرن العشرين، ولعادت عليه برخاء من العيش وشهرة بين الناس وسلامة من النقاد"[4].

فروجه بيكون سجن باعتماده على الفلسفة الشرقية[5] وسيمون أوكلي انقطع لتدريس العربية في كمبريدج انقطاعا عاد عليه و على أسرته بالإفلاس والسجن[6].والمستشرق الإسباني رايموندوسلولوس الذي ولد في جزيرة مالاقا سنة1235 أو1232م، لما أدرك أن المسلمون لن يقدموا له أي تنازل يتناول معتقداتهم، وكان يريد أن يقنعهم بصواب العقيدة المسيحية، فكان لزاما عليه أن يدخل معهم في حوار طويل ومناقشات حامية، ومن أجل ذلك كان لابد عليه أن يتقن لغتهم إتقانا كاملا، فحمله هذا الأمر على تعلم اللغة العربية من قبل رقيق مغربي، وقد أمضى تسع سنوات وهوعاكف على الدرس والتلقي.[7]

وهكذا فعدد لا يحصى من هؤلاء الباحثين عان معاناة شديدة في سبيل الاستشراق وطلب علم الشرق، تحقيقا وتأليفا وكتابة وترجمة وتصنيفا، كما يرصده الأستاذ الدكتور علي بن إبراهيم النملة في ملخص بحث له تحت عنوان الاستشراق والمستشرقون.

أكان هدفا علميا أم تجديدا كنسيا:

إن دراسة قضية الدوافع والأهداف المبتغاة من وراء الترجمات الإستشراقية لمعاني القرآن الكريم جزءا لا يتجزأ من الأهداف والدوافع لأبحاث المستشرقين، وأعمالهم. حيث أنها لا تتم كاملة بمعزل عن التبصر بالبنية الفكرية والتركيبة النفسية، التاريخية التي صممت– عن وعي أودون وعي– فلسفة هذه الأهداف واتجاه هذه المرامي لدى هذا الغرب الذي يطلق عليه الآن أوروبا، المنصبة اهتماماتها على الشرق الإسلامي بالذات في تحليلها الإستشراقي.

يعتقد نجيب العقيقي أن الهدف العلمي كان وراء كل الجهود الإستشراقية[8].والواقع خلاف ما يرى العقيقي. يقول بارت[9] وهومستشرق معاصر: "... إننا في دراستنا لا نسعى إلى نوايا جانبية غير صافية، بل نسعى إلى البحث عن الحقيقة الخالصة"[10]. يعني هذا أن الدافع العلمي في الحركة الإستشراقية بدا أظهر ما يكون اعتبارا من منتصف القرن التاسع عشر، وهذا ما يؤكد أن معظم الكتابات الإستشراقية قبل ذلك كان ينقصها الطابع العلمي.

يقول إدوارد سعيد أنه يستطيع كل باحث عن تاريخ الإستشراق أن يتبين بما لا يدع مجالا للشك أن الهدف الديني كان وراء نشأة الإستشراق ودعم الدراسات الإسلامية والعربية في أروبا؛ "وقد صاحب الإستشراق طوال مراحل تاريخه–أي الهدف الديني –، ولم يستطيع أن يتخلص منه بصفة نهائية. وحتى القرن التاسع عشر لم يكن الإستشراق قد حرر نفسه من إسار الخلفية الدينية التي اشتق منها أصلا إلا بدرجة ضئيلة.[11]

إن للإستشراق دوافع وأسباب وأهدافا يأتي في قمتها الدافع الديني بألوانه المتعددة، ثم تأتي في الدرجة الثانية دوافع تقترب أوتبتعد من الهدف

الديني[12]، منها السياسية والاستعمارية والاقتصادية والتجارية، ولعل الدوافع والأهداف الساميةالوحيدة، كما يؤكد ذلك نجيب العقيقي هي الأسباب العلمية النزيهة التي لم يخل الإستشراق منها بأيّ حال، خاصة في عصر التنوير في أوروبا[13]. ثم تأتي في المرتبة الثالثة البواعث النفسية والشخصية والخاصة والتاريخية والإيديولوجية غير الدينية كالمستشرقين الشيوعيين الذين تدفعهم إيديولوجياتهم إلى الاتجاه إلى الإستشراق.

بدأ الإستشراق أول ما بدأ من الفاتكان، وكان أول رواده من رجال الكنيسة وعلماء اللاهوت حيث ظلوا المشرفين على هذه الحركة والمسيرين لها حتى القرن التاسع عشر[14].وكان هؤولاء مدفوعين بدافع الإنتصار للنصرانية على الرغم مما قيل بأنهم منصفين. يقول عبد الرحمن بدوي عن سيل: "...وكان سيل منصفا للإسلام، بريئا –رغم تدينه المسيحي– من تعصب المبشرين المسيحيين وأحكامهم السابقة الزائفة"[15].

كان هذا الهدف وراء نشأة الإستشراق، والترجمات الإستشراقية للقران الكريم وقد صاحبه خلال مراحله الطويلة.

الخواف من القرآن و تلاشي الأمل:

يقول تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: 64].

يظهر مما أسلفنا ذكره بأن حركة الإستشراق التي تدير زمام ترجمات معاني القرآن الكريم إلى اللغات الغربية والأوروبية إنما جاءت إبان وصول أشعة شمس الإسلام إلى سماء أوروبا، ونتيجة للصراع الذي نشب بين الشرق والغرب.

لكن الواقع يشهد أن السبب الرئيس لظهور الترجمات القرآنية هوالقرآن نفسه لأنه الكتاب المعجز أبهر وأعجز مخالفيه من يهود ونصارى وقف لهم عثرة أمام انتشار أفكارهم الساقطة فهوينادي أهل الكتاب ويخاطبهم باسمهم ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ ولكن الحق أحق أن يتبع، وللدفاع عن الكنسية وسلطانها ولمواجهة الضغوط الشديدة المتزايدة من المفكرين المتمردين عليها، وهذا إذا علمنا أن الإسلام فتح أبوابه لهؤلاء الراسخون في العلم، فشهدوا بأنه حق من عند ربهم فوجدوا في الإسلام فرصة لتفكيرهم وتخلصا من سلطان كنائسهم التي تحجر على عقولهم.

لقد وجد المستشرقون في تعلمهم للغة العربية مجالا رحبا لدراسة علوم القرآن الكريم ودراسة العالم الإسلامي دراسة عميقة من شتى النواحي، وهم لا يتركون صغيرة ولا كبيرة في عالمنا الإسلامي دون دراستها دراسة تحليلية هذا حتى يتسنى للغرب توجيه مواجهته في محاولة السيطرة وفرض السيادة.

ومع دراستهم للقرآن الكريم زاد علمهم بحقائق القرآن ووصلوا إلى عين اليقين ولكن عمى البصيرة حولهم إلى العناد والمكابرة حتى بدت البغضاء من أفواههم وصدورهم فهبوا لمحاربة القرآن بكل ما أوتوا من قوة.

و لاستبيانطرائق وآليات المناهج الموظفة عند المستشرقين عند تناولهم ترجمة معاني القرآن الكريم، يجب متابعة عملهم خطوة بعد خطوة من أجل الوقوف على أهدافهم الحقيقية من وراء الترجمات القرآنية[16].

تكاد تنحصر أهداف المستشرقين من خلال الترجمات القرآنية في أمرين اثنين:

أولهما: خدمة مصالحهم، وتحقيق مقاصدهم المتمثلة في تشكيك المسلمين في دينهم، تمهيدا لاحتوائهم والقضاء على ثقافتهم، ثم إخضاعهم سياسيا وثقافيا واقتصاديا.

ثانيهما: استثمار الترجمات هذه لشن المزيد من الغارات والهجمات الشرسة على الإسلام.

ورغم مانراه أحيانا عند بعض المستشرقين من تظاهر بالتعاطف البالغ مع قضايا الإسلام، واستشهادهم بالنصوص القرآنية مسندين إياها إلى الله تعالى، فهذا لا يتعدى من أن يكون مظهرا جماليا وحضاريا يرجى من ورائه التقرب إلى المسلمين وكسب مودتهم.

وكان السؤال المهم لماذا عُني الغرب النصراني بالقرآن وترجمته ودراسته؟ هل المنطلق علميّ؟ وهل الهدف سام؟

يجيب أحد الغربيين (يوهان فوك) بكل صراحة ويقول: "لقد كانت فكرة التبشير هي الدافع الحقيقي خلف انشغال الكنيسة بترجمة القرآن واللغة العربيّة, وكلما تلاشى الأمل في تحقيق نصر نهائي بقوة السلاح بدا واضحا أن احتلال البقاع المقدسة لم يؤدّ إلى ثني المسلمين عن دينهم بقدر ما أدى إلى عكس ذلك, وهو تأثر المقاتلين الصليبيين بحضارة المسلمين وتقاليدهم ومعيشتهم في حلبات الفكر. ثم يتحدّث هذا الألماني الغربي عن أول تجربة غربية لترجمة القرآن قام بها (بطرس المبجل) عام 1143م, وكان

رئيسا لأحد الأديرة, وفي زيارته لإسبانيا واطلاعه على الحرب الدائرة بين المسلمين والإسبان, ومحاولات المسلمين استرداد بيت المقدس.

كل ذلك أوصل هذا البطرس النصراني المتعصّب إلى قناعة بأن لا سبيل إلى مكافحة (هرطقة محمد) على حدّ تعبيره– بعنف السلاح الأعمى, وإنما بقوة الكلمة ودحضها بروح المنطق الحكيم للمحبة المسيحية, ثم قال: لكن تحقيق هذا المطلب كان يشترط المعرفة المتعمّقة برأي الخصم أوّلا, وهكذا وضع خطة للعمل على ترجمة القرآن إلى اللاتينية[17]. عمل المستشرقون على مختلف جنسياتهم دفاعا لمحاربة الإسلام عن طريق ترجمة معاني القرآن الكريم بغية تشويه حقائق الإسلام والطعن فيه، والافتراء عليه بمختلف الأكاذيب لشحن أعداء الإسلام ضده وتنفيرهم منه، ولإثباتللجماهير التي تخضع لسلطانهم أن الإسلام هوالخصم الوحيد للمسيحية وهودين لا يستحق الانتشار، وأن أتباعه قوم همج متخلفون، سراق نياق، سفاكودماء، يبحثون عن المتعة الرخيصة إلى غير ذلك من الأباطيل والافتراءات التي لا تمت للحقيقة بصلة[18].

وهكذا نشأت ظروف الالتفات الغربيّ للقرآن في بيئة الكنيسة, والهدف محاربة الإسلام وتشويه القرآن ويأبى الله إلّا أن يتمّ نوره. فرغم حركة المستشرقين ونشاطهم العلمي, ورغم جهود المنصّرين ونشاطهم ودعمهم للدعوة إلاَّ أنَّ محاولاتهم باءت بالفشل, وبات الانبعاث الإسلامي في كلّ مكان وفي كلّ زمان يُدلل على خيبة أمل الصليبيين.بل ربما انقلب السحر على الساحر, فآمن من هؤلاء من كان قصده في البداية الدعوة للنصرانية, كما آمن من قبل سحرة فرعون وقالوا لفرعون بكل صراحة

﴿آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[الأعراف:121] وقالوا ﴿اقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾[طه:72].

الهوامش:

(1)–عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها، دراسة و تحليل و توجيه، ط:8،دارالقلم،1420هـ–2000م،ص127و128.

(2)–محمد أشرف علي المليباري، أهداف الترجمات الإستشراقية لمعاني القرآن الكريم ودوافعها، من موقع صيد الفوائدhttp://www.saaid.net/

(3)–عمر لطفي العالم، المستشرقون، دراسة نقدية لمناهج المستشرقين،ط:1،1991،ص121.

(4)–محمود حمدي زقزوق،الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، دار المعارف، القاهرة،1997،ص73.

(5)–ينظريوهان فوك، تاريخ حركة الاستشراق، تر: لطفي العالم، دار الكتب الوطنية،ليبيا،ط:2، سنة 2000، قصة سالومونيجيري(1665–1729) الذي تربى في مدرسة يسوعية للتبشير في دمشق، ص99 و100.

(6)–نفس المرجع.

(7)–يوهان فوك، تاريخ حركة الاستشراق،ص28.

(8)–الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، مرجع سابق،ص73.

(9)–بارت رودي (Rudi Paret) مستشرق ألماني ولد في سنة1901 في wittendorf بجنوب ألمانيا، تتلمذ في الدراسات العربية وتوفي في يناير سنة 1983. إرتبط اسم بارت بترجمة القرآن إلى الألمانية في مجلد والتعليق على الترجمة في مجلد ثانٍ. ينظر عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، دار العلم للملايين،ط:3، بيروت لبنان، ص62و63 .

(10)–الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، مرجع سابق.

(11)–إدوارد سعيد، ص265

(12)–حمدي زقزوق، الاستشراق، ص77.

(13)–المرجع نفسه.

(14)–عمر بن ابراهيم رضوان،آراء المستشرقين حول القرآن الكريم وتفسيره، دار طيبة للنشر،ط:1،1413هـ–1992م،ص31.

(15)–موسوعة المستشرقين، مرجع سابق، ص353.

(16)–ينظر حسن عزوزي، الدراسات القرآنية في مناهج البحث الإستشراقية المعاصرة، مجلة الوعي الإسلامي، العدد411، ذوالقعدة 1420هـ–فبراير مارس 2000م، ص23.

(17)–يوهان فوك، تاريخ حركة الاستشراق، ص61و62.

(18)–ينظر حمدي زقزوق، الاستشراق والخلفية الفكرية، ص82. و آراء المستشرقين حول القرآن الكريم وتفسيره، ص31.